المقال الرابع

بين الهمجية، ومرج الزهور*

فى مقالات سابقة، أطلقت حكما ذاتيا على احتلال إسرائيل لأرض فلسطين ، وفحواه أن هذا الاحتلال هو أبشع ـ بل وأحط ـ صور الاحتلال التى عرفها تاريخ البشرية منذ أن خلق الله تعالى آدم عليه السلام ، ومنذ أن أخذت ذريته تتدافع وتتصارع على سطح هذا الكوكب وفى فضائه . وقد ناقشنى أحد الزملاء فى موضوعية هذا الحكم وإطلاقه التاريخى العام . ولم أطق الجدال العلمى المقارن مع الزميل إذ ذاك، واكتفيت بالقول إننى اشعر من هول ما سمعت من بطش المحتل وجبروته وخداعه ما يتفوق فيه على كافة ما عرفت وقرأت من فظائع الاستعمار الأوربى : البريطانى والفرنسى والهولندى والبرتغالى والألمانى والإيطالى ، وغير ذلك من صنوف الاستعمار فى الشرق والغرب .

(*) مقال نشر فى أوائل عام ١٩٩٣ بمناسبة إبعاد ٤٠٠ من القيادات الإسلامية (حماس)إلى خارج الأراضى المحتلة ، حيث ألقوا بهم على التلال القريبة من الحدود اللبنانية لعدة أشهر فى العراء .

وتشاء الظروف أن يزورنى أحد أقاربى من القرية، ممن يتمتعون بقدر محدود من التعليم والاستنارة والوعى السياسى. وتناول حديثنا ـ فيما تناول من موضوعات ـ مأساة إبعاد الفلسطينيين الأربعمائة، حيث بدأت رحلة عذابهم فى قفار مرج الزهور وصقيعها وعواصفها، وحيث يشير إليها الإعلام الأمريكى بعبارة (الأرض التى لا يملكها أحد!!). وبدأ هذا القروى حديثه فى هذه القضية بحكم ظننته أكثر ذاتية وإطلاقيةمن حكمى على فظائع الاحتلال الصهيونى، حيث قال معلقا على مأساة الإبعاد (أخبرنى هل وقع مثل هذا الحادث فى أى عصر من عصور الهمجية، ومن دولة تدعى التحضر والديمقراطية ؟ ! إنهم يفاخرون بأن ليس لديهم حكم بالإعدام، لكن لديهم ما هو أقسى من ذلك : الضرب المبرح حتى الموت ، ودفن الأحياء فى التراب ، وتكسير العظام ، وتوجيه الصدمات الكهربائية إلى الألسنة والأعضاء التناسلية وحلمات الأثداء، لديهم القتل بالرصاص للمتظاهرين ممن يلقون الحجارة على جنود الاحتلال . .)

قلت (صدقت يا ابن عمى . . فإنى لا أعلم ـ رغم دراية غير قليلة بالتاريخ ـ أن احتلالا آخر قد مارس هذا النوع من الهمجية والبربرية . سمعنا عن نفى الزعماء والقادة إلى أماكن معينة، حيث توفر لهم سبل المعيشة المعقولة، والحركة فى حدود مرسومة، وتحت رقابة معينة. كلنا يعرف أين نفى عرابى ، وأين نفى سعد، ورفاقه، وأين نفى الأفغانى، ومحمد عبده .

كذلك نعرف أين سجن مانديلا بعد محاكمته، بل وأين كان ينفى ستالين خصومه. وكل هذه الألوان من النفى كانت لأفراد، يقضى عليهم بالإقامة الجبرية فى أماكن معلومة، وفى ظروف مهما قست. . . فإنها تضمن لهم حق الحياة والبقاء ،ولو فى أدنى صورة لكننا مع هذا الإبعاد الجماعى بالمئات أمام ظاهرة همجية لم يعرفها تاريخ الاضطهاد السياسى ، ويبدو أنها بهذه الصورة فى حجمها وبهذه الطريقة من التعذيب تعتبر إبداعا صهيونيا جديدا تسجله صفحات الاضطهاد السياسى للسيد رابين، الذى أوحت لنا الدعايات الصهيونية والغربية بأنه أكثر اعتدالا من سلفه شامير . يبدو أن التلذذ بالتعذيب (السادية) من سمات كل من الحمائم والصقور لدى الصهاينة .

وأردف ابن العم (لقد سمعت أن الجنود الإسرائيليين بعد أن يقتلوا الفلسطينيين المتظاهرين، يدوسون عليهم بأقدامهم، ويدحرجونهم كأنهم يلعبون كرة قدم .

و العياذ بالله ، وهذه همجية لم نسمع بها من قبل . وهل يطلبون منا أن نغفر لهم هذه الفظائع غير الإنسانية . . وكل يوم يخلقون لها مشكلة تصرفنا عن القضية الأصلية، قضية احتلال الأرض ونهب ما عليها) . .

قلت: نعم. هذا هو جوهر المشكلة. انهم يعتبرون كل فلسطين أرض الميعاد ، وأن ما استولوا عليه من الضفة الغربية وقطاع غزة وأقاموا عليه المستعمرات، هى أرض محررة، وليس أرضا محتلة). وختم ابن

العم حديثه بقوله (كيف لإنسان مثلى أن يتصالح مع الصهاينة مع كل ما يقومون به من قتل وتشريد وإبعاد وهدم للمساكن من أجل قمع الانتفاضة . كذلك فإنى لا أستطيع التصالح مع الصرب، بعد كل ما ارتكبوه من تطهير عرقى ضد مسلمى البوسنة من فظائع تشبه ما يقوم به الجيش الإسرائيلى . . لقد فاق ما يقوم به هؤلاء جميعا كل ما نسمعه وكل ما نعرفه بين أساليب التعذيب). وهنا تذكرت ما عقده الأستاذ أرنولد تورنبى فى كتابه (دراسة التاريخ ١٩٥٤) من موازاة بين ما فعله النازى بيهود أوربا ، وما فعله الإسرائيليون بعرب فلسطين ـ وأضيف وما يزالون ـ يفعلونه حتى اليوم .

أحببت أن أورد هذا الحوار الذى يبدو ساذجا مع واحد من أهل الريف ، لأنه يكشف بخطوطه الفكرية المستقيمة عن عمق المأساة الفلسطينية وعن وعى عميق بها لدى قطاعات كبيرة من الشعب المصرى فى أعماق ريفه . وأتساءل : أين تطبيق قرارات مجلس الأمن حتى فى قضية فرعية حين يطالب بعودة كل المبعدين، وأين حقوق الإنسان، ومواثيق جنيف، وكلها موضع استخفاف أو مساومة أو صلف أو مراوغة لدى إسرائيل ثم أين ما يسمى بالنظام العالمى الجديد ؟ إذ الواقع ليس ثمة نظام ولا عالمى ولا جديد، لكنه استمرار لمنطق القوة والهيمنة وعلاقة الذئب بالحمل مع كل ضعيف وتابع كما خلدها لامرتين .

أذكر هذا الحديث مع ذلك الريفى ليزداد اقتناعى بأنه لا بديل من تعبئة كل قوى المقاومة لدى كل مواطن وجماعة ومنظمة فى ساحات الأمة

العربية ، كما يذكرنى بضرورة مواصلة هذه المقاومة فى مصر ، وبخاصة من قبل كافة جماعات المثقفين، وكل القوى الديمقراطية، ودعاة التعزيز لمؤسسات المجتمع المدنى ضد محاولات التطبيع مع إسرائيل .

والجماهير الواعية أنها مقاومة لمختلف مظاهر التطبيع الشعبى ـ اقتصادا واجتماعا وثقافة ـ مع إسرائيل الصهيونية، طالما ظل المسلسل اليومى فى القتل، الذى وصل إلى أكثر من ألف فلسطينى منذ بداية الانتفاضة حسب رواية وكالة رويتر، وهو أقل التقديرات للضحايا، فضلا عن آلاف الجرحى، والتدمير لمئات البيوت، والتشريد والتجويع لآلاف الفلسطينيين ، وطالما ظلت قرارات الأمم المتحدة قابلة للاختراق والتفسير والتأويل لصالح إسرائيل ، وطالما ظلت السياسة الأمريكية ملتزمة بأمن إسرائيل على حساب الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى فى إقامة دولته المستقلة على ترابه .

وأعتقد أننا فى حاجة ، فى خضم ما نشهده من مآس وأحداث دامية ـ إلى أن تنظم صور المقاومة الملائمة، بدءا من تجديد العهد بمقاطعة أى صورة من صور التطبيع، سواء فى لقاء رابين ، أَمْ غير رابين. كما أشارت الصحافة إلى ذلك عند زيارة رابين الأخيرة، وعلينا ألا ننخدع كما أثبتت الأحداث بما اصطنعه البعض من مبررات منذ أن ظهرت أسطورة الحاجز النفسى، امتدادا إلى محاولات الاختراق عن طريق البحث، أو إلى المشاركة فى جماعات مبادرة السلام والتعاون فى الشرق الأوسط زعما بأن ذلك سوف يمهد لتحسين أجواء المفاوضات عن طريق إيجاد « أرضية

مشتركة » بين العرب وإسرائيل . . أية أرضية مشتركة إلا إذا كان لنا نحن العرب ـ وبخاصة جماعة المثقفين ـ موقف موحد محدد، ودعونا من أولئك الذين يبالغون فى الحديث عن المتغيرات الجديدة، وكأن الدنيا انقلبت رأسا على عقب ، ولسان حالهم نصيحة أحد الأساتذة الأمريكيين إذ يقولون معه « علينا أن نراجع القيم العربية السياسية السائدة منذ زمن طويل » .

سوف يظل نضالنا صاعدا حتى تتحرر أرض العرب من الاحتلال الصهيونى البشع، وتحياتنا للصامدين فى مرج الزهور ، نشد على أياديهم، داعين لهم بالعودة العاجلة إلى تراب وطنهم ، ومنادين بمساندة كل سعى مخلص من أجل تحرير الأرض العربية وكرامة الإنسان فيها، وإقرار السلام العادل لسكان هذا الكوكب .